المجتمع المثالي

● يؤكد الاسلام بان الناس سواسية ، ولا يتفاضلون الا بالعمل الصالح والخلق القويم ، وهكذا نراه يطهر الانسانية من غرور النسب وصفة اللون .

● ان الاسلام كغيره من ينقض واحداً من الانبيـــاء الذين سبقوا محمداً ونزّه تاريخهم عن الكذب ؛ وضرب بعزمهم وصبرهم الامثال مؤكداً انهم كانوا مشاعل هداية للعالمين .

● استمد الاسلام الفروق الدينية في القضاء ، فلا فرق بين مسلم وغير مسلم امام العدالة . وقد برهن النبي والخلفاء الراشدون بأعمالهم على ذلك .

معركة بين النظريات :

ما زال الانسان منذ بدأ يرقى سلم المدنية ، تائها وراء أمله المنشود ، وبغيته الضائعة ، ساعياً من اجل هدفه الاسمى ، ورسالته العليا ، الا وهي « المجتمع الفاضل »

وفي سبيل هذه الغاية ، راح العقل الانساني يبتكر في كل يوم نظرية ، ويرى في كل يوم رأياً ، ويحاول في كل مناسبة محاولة ، وينهج في كل ظرف نهجـــاً .

وتشابكت النظريات والاراء ، وتباينت الحلول والمناهج ، واتخذ بعضها الصفة السياسية ، وحمل بعضها راية العقل ، وتوسل بعضها الاخر بالتجارب والعمليات التطبيقية ، وها نحن في القرن العشرين نعيش على فوهة بركان خامد ، لا نعرف مدى ثورته ؟ ولا ندري لحظة انفجاره . ها هي الانسانيـــة اليوم ، وقد تفرقت شيعاً واحزاباً ، ونظريات وانظمة ، يحاول كل منها ان يكسب التأييد ونيل الغلبة ، بتوفير اكبر قسط من العدالة ، ويسعى كل منها من اجل اخضاع الاكثرية البشرية لمبادئه واسسه ، وكل نظام يحاول ان يغري انصاره بزعمه حماية العدالة ، وحرصه على الحرية ، وحراسته للقيم السامية . وكل نظام يحـــاول ان يظهر للملاء بمظهر البطولة والترفع والاخلاص للانسان ، وسعادة الانسان وأمنه وسلامه .

ولكن .. ما هي حصيلة هذه المعركة بين النظريات ، ومـــا هي نتيجة هـــذا التسابق بين المبادىء في كسب وُد البشرية واكتساب رضائها !؟..

السعادة ضالة البشر :

مما لا شك فيه أن اختلاف الانسان في تطبيق مفهوم العدالة ، وتبـــاين آرائه حول مبادئها ، جعل العدالة نفسها في خطر .. وهذا الاستنتاج امر بداهي تماما . لان الغاية من تطبيق العدالة هي الوصولُ « الى السعادة » والحصولُ على الامن ، والتمتعُ بالراحة والرخاء .. للاحياء جميعاً .. وهذه الغاية لن توصلنا اليها الحروب ولن تضعها بين ايدينا الدماء التي تريقها الشعوب .

وسبيل الانسانية الى السعادة والسلام ، سبيل لايمكن سلوكه بالطـــائرات ، ولا يمكن تمهيده بالقنابل ، والطريق الى الامن الانساني العام طريق لسنافيه بحاجة الى محالفات عسكرية ، ولا الى اتفاقات دولية ، لُحْمَتُها المصالح الرخيصة ، وسداها التجارة بمصائر الناس .

اجل ان السعادة ليست مطلباً عسيراً ، يستحيل على الانسان امتلاكه والحصول عليه ، وليست هدفاً خيالياً يحلم به المصلحون الاجتماعيون ، ويتوقعون حدوثه في العالم الآخر .

وليس معنى هذه الحروب التي استعرت نارها بالامس ، بين النازية والرأسمالية ، والتي يدوم خطرها اليوم ، بين الشيوعية والرأسمالية ، ليست هذه الحروب دليلاً على ان الأمن بين الانسان واخيه ، والسعادة بين البشر ، اخبار علمية وافكار تدور في الرؤوس ، وتفكر بها العقول وتدور بذكرها الألسن ... ولكنها لا توجد ؟

لا .. فما اشدّ خطأ من يدعي ذلك لان حالة التوتر القائمة دائماً وابداً بين النظريات الانسانية التي تزعم انها تعمل من اجل اسعاد البشر واشاعة السلام بينهم .. حالة التوتر هذه دليل صريح لاينقض على ان النظريات الانسانية كلها نظريات فاشلة .

ودليل على ان العاملين من اجلها انانيون مخطئون ، وان الانسان في كافة مراحله لايستغني عن السماء ووحي السماء . وان رسالة الاديان لم تفقد جوهرها الروحي بعد ، ولم تتنازل عن رفعة مقاصدها ، وترفع اهدافها ، وان الناس مهما اوتوا من العلم ، ومهما حازوا من درجات التقدم ومهما نالوا من اطوار الازدهار .. فانهم دائماً وابداً عباد الله ، بحاجة لشرع الله . ذلك الشرع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي لا شفاء للانسان الاّ به ، ولا سعادة الا باتباعه ...

والله تعالى اعلم منا بانفسنا ، واحرص على سعادتنا منا ، ونظامه للعدالة نظام إلهي ليس فيه طمع ولا جشع ، ولا كبرياء ، ولا تسلط ، وهو الغاية التي ما بعدها غاية .. والامل الذي ليس من بعده أمل .

عمل الاسلام من اجل العدالة

الاسلام كدين سماوي ، وشرع الهي ، ضرب بسهم وافر في تنظيم العدالة ، وارساء قواعدها بين الناس ، ونال حظا عظيما في رسم القواعد الاولى لاسعادهم ، وتوفير الامن والطمأنينة لهم ، وفتح فتوحا جديدة في محاربة الآفات التي كانت تأكل كل جهود المصلحين الاجتماعية كما تأكل النار الحطب ...

فماذا فعل الاسلام ؟ وكيف حقق العدالة في بناء المجتمع ؟

معنى العدالة في رمضان

هذا ما سنحاول كشف النقاب عنه ، للمسلمين خاصة وللمواطنين عامة ، وأول مثل له هو شهر رمضان المبارك الميمون ، الذي انزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان . ذلك بان رمضان وحده بما يتخلله ويحف به من المعاني الانسانية الرفيعة ، هو صورة رائعة من سمو العدالة الاسلامية بل هو من اقوى ضروب الرياضة ، التي يقود الاسلام بها ازمّة النفوس ، الى تحقيق حياة اجتماعية مثلى ، تقوم على اكرم مبادىء العدل والمساواة .

فاذا جاع الفقير وشبع الغني في كل أيام السنة ، وأدى ذلك الى شعور الاول بمرارة الظلم ، وزهو الثاني ببطر النعمة ، ــ جاء رمضان فنشر لواء الجوع على الغني والفقير ، بدرجة واحدة ، فأحدث للعدالة طعماً جديراً بأن يشد النفوس اليها ، ويديم ارتباطهم بها ، لأن في المساواة امام الجوع تعزيةً لنفس الفقير بأن الغني قد اصبح نظيراً له ، وتربية لنفس الغني بان الفقير نده وقرينه .

وكذلك يجمّل وجه العدالة الاسلامية حين يُرسل المؤذن صيحته الخالدة مع غروب الشمس ، فتحمل الاذن بالطعام للفقير والغني على السواء ، فاذا المساواة طابع رمضان ، يُشعر المسلمين بها في الحرمان فيمضي اليوم والناس جميعاً

ممسكون ، ويروضهم على الاعتصام بها في العطاء ، فلا تغرب الشمس الا والجميع مفطرون .

ولا مراء في ان الاسلام يهدف بفريضة الصيام الى تأصيل فضيلة العدل ، سواء بهذه الوحدة بين كافة الطبقات في مظاهر الحياه ، او بما يثير في نفوس ذوي اليسار من الشعور بآلام المعسرين ومد اليد اليهم ، بالمشاركة في مال الله الذي آتاهم اياه .

لقد ضاعف الله اجر الصدقات في رمضان ،

وتسابق الصحابة الكرام الى البذل والعطاء في رمضان ،

وكان رسول الله ﷺ في جوده كالريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون في رمضان . ثم في نهاية الشهر تجب زكاة الفطر فلا يقبل الصيام الا باداءها إتماماً لحق رمضان . فاين تذهب حصيلة هذه التوجيهات كلها ؟ وهي كثيرة لا يحيط بها الاحصاء ، واي اثر تحدثه هذه العطايا جميعاً في مجتمع يتفاوت اهله في الغنى واليسار ؟

الا ترون — قرائي الاعزاء — ان مجتمعا تنحدر فيه هذه الاموال من فم الثروات الى سفوح الاقلال جدير بان يجد فيها خير اداة لاحداث التوازن ، وتقريب مسافة الفرق بين كافة الطبقات ؟

ثم الا توافقون معي على ان رمضان بهذا الاعتبار حري ان يعتبر معرضا سنويا لفضائل الاسلام ، وفي مقدمتها فضيلة العدل والمساواة بين عامة الناس ؟

دعائم المجتمع المثالي :

يقوم المجتمع في نظر الاسلام على دعائم عدة من خلق وحكم ووحدة وامـــل وتكافـــل ، ولكل منها اثره الكبير في تسديد خطى الجماعـــة الانسانية نحو الرقي والكمال .

وما من شك ان العدالة والمساواة دعامتان اساسيتان وضروريتان لبناء مجتمع صالح ، وتأمين استقراره وطمأنينته .

والاسلام حين يحدد دورهما في بناء المجتمع ، ويشدد عليهما كعاملين يضمنان كيانه ويثبّتان قواعده ، إنما يسيّرهما في اتجاهين مختلفين : سلب وايجاب ، ويعهد اليهما بعمليتين : هدم وبناء ، وذلك لان توجيهات الاسلام الانشائية بمثابة بذور النبات الزكي لا بد لكفالة نموّه من تطهير التربة من الطفيليات ، ضمانـــاً لطهارة الفطرة الترابية ، التي تحضن الغرس الطيب ، وتنمّيه ، ليعطي ثمره الحلو اليانع .

تطهير داخلي :

من اجل ذلك ، يعمد العدل الاسلامي ، الى شق طريقه ، بتطهير وعاء النفس الانسانية من كل ما يشعرها بالصلف حيناً ، وبالصغار حيناً آخر ، حتى يردها الى أصالة طهرها . فلا يغريها الاقبال ، بالجشع والكبرياء ، ولا يشدهـــا الحرمان والعوز الى استمرار الضعة والهوان . وكلما بلغ الغاية من هذا التطهير في جانب ، أسرع الى ايداعه عناصر العدل الايجابية ، فمد بذلك لقيام بناء المجتمع الراشد على ارض خلت تربتها من الطفيليات وبذور الطفيليات .

ولعل أول ما يستهل به العدل الاسلامي عمله ، في بناء المجتمع الصالح ، هو

انه يقيم الموازين القسط بين ابناء آدم جميعاً ، ويعلن ان النفس الانسانية من اصل واحد :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء » .

فيحرر المجتمع بذلك من الإحتكام الخاطىء الى المعايير المصطنعة ، في النظر لى فئات الخلق ، والحكم على اقدار الناس .

قلنا ان الاسلام يشدد الحملة على بذور الكبرياء والضعة ـ وهو الجانب السلبي من عملية البناء ـ ليهيء النفس الانسانية لمنهج الاعتدال الكريم ، الذي لا يبطره زيف الدنيا وبهرجها ، ولا تحني هامته حوادث الايام : « قال تعالى في كتابه العزيز :

« اليس في جهنم مثوى للمتكبّرين » وفي موضع آخر : « قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .

وقال رسول الله ﷺ : « لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه » .

فهل يسع امرءاً يؤمن بالله وباليوم الآخر ، ان يسد اذنيه ، فلا يصغي الى هذه النذر ، وان يسمح لها فتزين له الزهو على الخلق او تستدرجه الى ادعاء التميز على سائر الناس ؟

بل ألا ترون ـ قرائي الاعزاء ـ ان من شأن هذه النذر ان تحدث رد فعل طبيعي فتكاد تهبط بالنفس الانسانية مباشرة من التعالي والاستكبار ، الى القناعة بالدون والصغار ، لولا ان في هذا العلاج اسباب المناعة من الانتكاس حين يقول تعالى :

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وفي قوله ايضا : « أيبتغون عندهم العزة : فان العزة لله جميعاً »

وحين يقول رسوله عليه السلام : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف واليد العليا خير من اليد السفلى » وتبلغ الحصانة أوجها بهذا الحديث الشريف « من اعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس مني » .

اسس البناء الثلاثة

بمثل هذه الحملات العنيفة على نوازع التمييز بين الانسان ، يقتلع الاسلام من النفس الانسانية الطفيليات ، ويهيئها لتقبل بذور التوجيه الايجابي البناء ، الذي يمكن ان نجملها في ثلاث نقاط :

اولاها : وحدة المنشا :

لقد قرر الاسلام ان الناس جميعا متساوون في قيمة الفطرة التي نشأوا منها والتي مردهم اليها ، وهي الفطرة الترابية التي لاتسمح لعاقل ان يتخذها مادة للشموخ بانفه ، او العلو بقدره ، « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى »

« والناس لآدم ، وآدم من تراب »

وثانيها ـ وحدة القيمة :

فالاسلام حين يضع الاصل البشري بصورة ينتفي معها الغرور ، وفي وضع لا يمكن معه اتخاذه مادة للزهو والخيلاء والاستعلاء ، يقرر كذلك الا تفاضل بين الناس بهذا الاصل بل التفاضل بينهم يقوم على اساس آخر .

ان الناس كما أكد الاسلام سواسية كاسنان المشط ولكنهم يتفاضلون بالعمل الصالح والخلق القويم : « لا فضل لعربي على اعجمي ... الا بالتقوى » . « والخلق

كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله». « ومن اطاعني دخل الجنة ولو كان عبدا حبشيا ، ومن عصاني دخل النار ولو كان شريفا قرشيا » .

ألم يعمد الاسلام في تعاليمه هذه الى توجيه النفس الانسانية نحو الخير، وانتزاع ما يشوبها من غرور النسب وضعة اللون ! ليحقق المساواة في القيمة بين الناس جميعاً عند نقطة انطلاقهم في خدمة مجتمعهم ، ثم لايعترف بشيء من التمايز فيما بينهم بنسبة ما يقدم احدهم لمجتمعه وبني دينه ووطنه .

وحدة المصير :

اما النقطة الثالثة التي اراد الاسلام ان يهيىء بها النفس الانسانية لتقبل فكرة العدل والمساواة فهي وحدة المصير :

ان الناس حين يشعرون بانهم صائرون الى نهاية واحدة . ومنتهون مهما طال بقاؤهم على الارض الى مصير واحـــد ، ينزعون الى حب العدل والمساواة والى التخلق بكل ما هو كريم وتسامح .

واي شيء يغري الانسان بالتطاول على الخلق ، ونذير الموت يقرع سمعـــه : « كل شيء هالك الا وجهه .. له الحكم واليه ترجعون » .

وكيف يتطاول المرء على اخيه ، وهو يشعر ان الموت مصير كل حي ، وان حفرة القبر الموحشة مثوى لكل انسان، وان القوي والضعيف، والمغرور والمسكين ، والظالم والمظلوم ، كلهم في القريب على مائدة البلى ، بل في ضيافة الدود والتراب ؟

أمام كل ذلك . تنهزم عوامل الاستعلاء والاستخذاء جميعاً في نفس الانسان ويقوى فيها الميل الى القصد والتزام الصراط المستقيم .

« وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيـه : ليُقْضى أجلٌ مسمىً ثم اليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . »

وينطلق الاسلام بعد ذلك ، لينفث روح المساواة والعدالة في مظاهر ثلاثة من مظاهر الحياة العامة .

في العقائد ، وفي العبادات ، وفي المعاملات ،

فالاسلام ، يدعو الى احترام الاديان السماوية عامة ،

« قولوا آمنا بالله وما آنزل الينـــا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين احد منهم » .

ثم ينهى عن مضايقة غير المسلم في عقيدته وعبادته وماله ،

ويعلن حرية المعتقد : لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ،

ويؤكد اخوة الاديان جميعها ، فيقول تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .. ويعلن انهـــا من مصدر واحد « إنّا أوحينا اليك ، كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

اما في العبادات ، فقد حرص الاسلام على ان يساوي بين معابد الاديان جميعاً في الحرمة الواجبة لها ، والقاضية بصيانتها وعدم المساس بها .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم بعضٍ لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . »

ولم يكتف باقرار المبدأ بل انه نهى عن التعرض للرهبـــان في صوامعهم ، وطبق الخلفاء الاولون هذه التعاليم تطبيقاً رائعاً ، اذ ان القراء يذكرون ما جاء في وصية ابي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، لقواده وكيف نهـــاهم عن التعرض للصوامع ، ونساكها :

« وستجدون اقواما ترهبوا في صوامعهم فدعوهم وما فرغوا انفسهم له » .

صور فذة من تطبيق مبدأ المساواة :

ولم يقف احترام الاسلام للعبادات عند هذا الحد ، بل أن السلوك الاسلامي حظر استخدام معابد الذميين لصلاة المسلمين حتى لا يدّعي المسلمون حقـــاً عليها مع مرور الزمن . والتاريخ ما زال يذكر باكبار ، يوم دخل الخليفة العادل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، وحان وقت الصلاة وهو يزور كنيسة القيامة ، وأراد ان يؤدي الفريضة ، فسارع الى الخروج من الكنيسة ، ليصلي عند عتبتها . ويُسأل الخليفة عن سر هذا التصرف رغم ان الاسلام يعتبر المعابد جميعاً من بيوت الله ، ورغم ان التعاليم الاسلامية تبيح للمسلم ان يصلي أنى شاء ، فيجيب الخليفة العظيم بانه لم يفعل ذلك الا لانه لايريد ان يأتي يوم يستولي فيـــه المسلمون على الكنيسة بحجة ان ابن الخطاب صلى فيها !

أما في المعاملات فان الاسلام وقف من الذميين والمعاهدين موقفاً نبيلا ، لا تلحقه فيه احدث النظم العصرية التي تتشدق بالحرية والمساواة .

فلقد حث على احترامهم واكرامهم واحسان معاملتهم ، واستهدف حمايتهم وحماية اموالهم ، واتخذ دين الذمي اساساً لرعاية ماله ، ولو كان هذا المـــال من المحرمات في نظر الاسلام ذاته .

والدليل على ذلك انه مع تحريمـــه الخمر والخنزير ، وتحذيره المسلم من اثمه او

صنعها او بيعها ، ومع انه حرم عليه اكل لحم الخنزير او تربيته ، او الاتجار بـــه لان الخمر والخنزير في نظر الاسلام مال غير متقوم مع كل ذلك فقد اوجب الاسلام حماية هذا المال غير المتقوم اذا تعلق الامر بذمي .

فلو اتلف احد المسلمين خمراً او خنزيراً لمسلم فلا عقاب عليه ولا تعويض ، لان الخمر والخنزير كما قدمنا مال غير متقوم بالنسبة للمسلم ، اما اذا اتلف مسلم خمر ذمي او خنزيراً يملكه ، فان الاسلام يفرض عليه العقاب والتعويض لانه في دين الذمي مال متقوم يجوز التعامل فيه عند اهل الكتاب .

واوجب الاسلام على دولتـــه ان تحسن صحبة الكتابيين من الطوائف التي لا تدين بالاسلام فقال تعالى في كتابه الكريم :

« لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرُّوهم وتقسطوا اليهم » وما اكثر الشواهـــد في التاريخ الاسلامي على نبل المعاملة التي يلقاها الذميون من المسلمـــين ، وكيف كانوا يعملون على توفير الطمأنينة لهم من حيث الحماية المالية والحرية العقائدية .

رب قائل يقول : ان في الاسلام نزعة استعلاء على بقية الاديان ، وميلا الى الظهور عليها بدليل انه استهدف جمع الناس على رسالته ، وانه اورد في مواضع كثيرة من القرآن ، مايفيد بان الله فضّله واظهره على الاديان جميعا مثل قوله تعالى :

« ليظهره على الدين كله » وقوله : « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون » .

نظرة الاسلام الى الاديان :

ولرفع الشبهة التي تسبق الى بعض الاذهان من هـــذه الآيات الكريمة نقول :

ان الاسلام نادى بوحدة الاديان السماوية جميعاً ، فهي في نظره متحدة المنابع ، موحدة المصدر ، وقد اعطينا الدليل ، فيما مر ، على ذلك .

ولكن الاسلام ، من ناحية ثانية ، يعتبر الاديان التي سبقته مراحل هداية ، وهو اذ يعتبرها كذلك لايقلل من شأنها واهميتها ، وضرورة احترامها ، بل انه يصر على وجوب احترامها واعتبارها وإياه شيئاً واحداً . وانما كانت الاديان التي سبقت الاسلام متوافقة مع حاجات البشرية في عصورها السالفة حتى اذا تم نضج البشرية وتبلورت حاجاتها جاء الاسلام اكثر شمولا وأوفى بمطالب الانسانية التي طرأت عليها بعد رسالات الانبياء السابقين صلوات الله عليهم اجمعين .

وليس أدلّ على حقيقة نظرة الاسلام للاديان الاخرى من مدحه الموسوية الصحيحة بقوله : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » .

ومدحه للمسيحية الربانية بقوله : « اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك اليّ ومطهّرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » .

ولا نعتقد ان كتاباً دافع عن عصمة مريم كما دافع القرآن الكريم ، واننا لنحيل من يشك في هذا القول على سورة مريم ، ليرى كيف نظر الاسلام الى المسيحية نظرة تنزيه وتقديس .

الاسلام والانبياء :

اما بالنسبة للانبياء الآخرين الذين سبقوا محمداً ﷺ ، فالدين الاسلامي كرّمهم اعظم تكريم ، فكفر من ينقض واحداً منهم مهما احب محمداً ، ونزّه تاريخهم عن الكذب وضرب بعزمهم وصبرهم الأمثال ، وأكد انهم كانوا مراحل هداية للعالمين :

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن

تصديق الذين بين يديـــه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

يستنتج مما تقدم ان جمع الناس على الاسلام هو جمع على هدى السماء ، متضمناً روح الاديان السابقة ، وان ظهوره على الدين كله هو ، ظهور الكتب السماويـــة جميعاً بظهور مرحلة الختام على مراحل البداية ، والدليل على ذلك ان القرآن حين يؤكد ظهور الاسلام يقول .. ولو كره الكافرون...ولو كره المشركون...ولم يقل ولو كره اليهود او المسيحيون .

قواعد العدالة الاجتماعية :

لقد عمل الاسلام من اجل عدالة اجتماعيـــة ، ترسيخاً لفكرة العدالة كمبدأ ، وتنمية لها كسلوك ، لذلك سعى الاســـلام الى تحقيق العـدالة الاجتماعية بوسائل شتى اهمها :

١ ــ اعلان الاخوة بين ابناء المجتمع الاسلامي :

ا) « انما المؤمنون اخوة ، فاصلحوا بين اخويكم . »

ب) لا يؤمن احدكم حتى يحب لنفسه .

٢ ــ تشديد النكير على كل عمل يوهن الاخوة الاسلامية :

ومن اجل ذلك حرم التعالي والسخريـــة بقوله : (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهم) .

وحرم التعريض بالعيوب والتفـــاخر بالاحساب « ولا تلمزوا انفسكم ، ولا تنابزوا بالالقاب »

وحرم الغيبة والنميمة وسوء الظن : « اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيـــه ميتاً فكرهتموه »

٣ ـ الترغيب في كل ما يجمع القلوب ويدعم الوحدة :

كالدعوة الى الاصلاح بقوله ﷺ : « الا ادلكم على افضل من درجة الصلاة والصوم ؟ إصلاح ذات البين »

وكحسن الجوار بقوله : « اتدري ما حق الجار عليك ؟ اذا استعانك اعنته ، واذا استقرضك اقرضته ، واذا افتقر عدت عليه ، واذا مرض عـــدته ، واذا اصابته سراء هنأته ، واذا اصابته مصيبة عزيته ، واذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب الريح عنه الا باذنه ، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك الا ان تغرف له منها ، واذا اشتريت فاكهة فأهد له ، والا فادخلها الى بيتك سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

كما اغرى الاسلام بالمساعدات والخدمات الاجتماعية ، فاعتبر مساعدة الضعيف صدقة ، وازاحة الاذى عن الطريق صدقة ، وحث على التعاون ابتغاء خير الجماعة فقال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال عليه السلام : « من ادخل السرور على اهل بيت من المسلمين لم ير الله جزاء دون الجنة » .

كما قال : لأن يمشي احدكم في حاجة اخيه خير له من ان يعتكف في مسجدي هذا شهراً .

٤ ـ اعلان الاخوة الانسانية ، واسقاط التفاضل بالانساب والمظاهر :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى » ، بهذه الصيحة الثائرة واجه الاسلام الاحساب والانساب والتفاضل القبلي ، ثم راح صاحب الرسالة العظيم يطبق ذلك تطبيقاً عملياً ، فيكتب بين المسلمين واليهود صحيفة الموادعة يساوي فيها ، بين الفريقين ، في الحقوق والواجبات ويأتي قادة الفتح الاسلامي ليترسموا هذا الطريق ، فيفعل مثل ذلك المثنى وسعد مع النصارى الذين حاربوا معه في البويب وفتح بهم فارس والمدائن .

لفتات نبوية حول الاخوة الانسانية :

ويوصي الرسول العظيم اهله فيقول : « التمسوا لكم عملا ينجيكم من الله ، فوالله لا اغني عنكم من الله شيئاً » .

ويمر به ، وهو في جماعة من اصحابه ، رجل حسن الهيئة فيقول لهم : ما تقولون في هذا ؟ فيقولون : هذا والله حري اذا قال ان يسمع لقوله ، واذا خطب ان ينكح فيصمت الرسول العظيم . فيمر بهم رجل آخر تبدو عليه مظاهر الاقلال فيسألهم : ما تقولون في هذا ؟ فيقولون يارسول الله والله انه لحري اذا تكلم الا يسمع له واذا خطب الا ينكح . فيقول محمد عليه السلام كأنه يعطي الانسانية كلها درسا في ان الخلق العظيم ميزان الافضلية ولو كان صاحبه مثال الفقر والفاقة ؛ يقول عليه السلام : لهذا خير من ملء الارض من هذا » .

العدل اساس الملك :

ولقد رأى الاسلام ان العدالة لاقيمة لها اذا لم يكن هناك قضاء عادل ، بين

الناس ، فجاء التاريخ يشهد بان المسلمين وفروا للناس عدالة قضائية جعلتهم طليعة الامم العادلة على الارض .

يوصي القرآن الكريم بالعدل ، ويشدد على ذلك بقوله: «واذاحكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » . « .. واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

فيقيم المسلمون أسس مملكتهم ، وقواعد حكمهم على العدل ، على هذه الركيزة الامينة الراسخة ، التي لايمكن ان يتزلزل حكم اذا كانت هي قاعدته ، وبفضل التوجيه المحمدي ، يتغلغل حب العدل ، في نفوس اتباع الاسلام ، فيصبح شيئاً من دمهم واعصابهم .

فهذا عمر بن الخطاب يوصي ابا موسى الاشعري حين بعثه قاضياً على الكوفة بوصية لاتزال حتى يومنا هذا ، مصدراً من مصادر التشريع ، في اصول المحاكمات ومثلا يحتذى في تلقين آداب القضاء ، يقول عمر رضي الله عنه وهو يوصي ابا موسى :

اما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلي اليك وأنفذ اذا تبين لك . فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له. آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك ، حتى لايطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرّم حلالا او احلّ حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ثم راجعت فيه نفسك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ، والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل .

الى ان يقول : اياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الاجر ويحسن الذخر ... الى آخر تلك الوصية التي ما زال طلاب الحقوق يتدارسونها في الجامعات حتى اليوم .

وهذا هو ايضاً يطلق في سمع الدنيا صرخته التي ما تزال تدوي ، متى استعبدتم

الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ، يصفع بهـا كل من يحاول ان يستغل نفوذه لالحاق الاذى بالناس ، او انزال الحيف والظلم بهم . وهي تذكرنا دائماً كيف ضرب الفاروق العظيم ابن الاكرمين ولد الحاكم عمرو بن العاص اقتصاصاً منه ، لانه تطاول على احد رعايا المسلمين .

وهذا هو ايضاً ، يقيم حد الزنى على ولده ، فيستغيث به ولده ، ويقول : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ، إلا مزقتني إربا إربا ، ولا تفضحني بين المسلمين ، فيقول له الخليفة العادل جاعلا العدالة فوق عاطفة البنوة :

« يا بنيّ وماذا اصنع بقوله تعالى : وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »

الناس امام العدل سواء :

ولو اردت ـ قارئي العزيز ـ ان اتقصّى اخبار العدالة القضائية في الاسلام عبر التاريخ ، لأعوزتني المجلدات ، ولكنني قبل ان انتقل الى الناحية الاقتصادية أود ان اشير الى ان الاسلام اسقط الفروق الدينية في القضاء ، فالمتقاضون امام عدالته سواء لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، وكلنا يذكر كيف نهى الرسول عليه السلام عمر عن البطش باليهودي الذي اغاظ في طلب حقه من الرسول ﷺ وكيف انكر عليّ كرم الله وجهه من أبي بكر رضي الله عنه انه ميّزه عن خصمه اليهودي بالكنية ، مما يثير الشبهة في نفس المتقاضي .

كما ان الاسلام اسقط الاعتزاز بالعاطفة والقرابة ، وقد سبق ، وذكرنا في موضع آخر موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من ابنه واقامته الحد عليه . وتأكيداً لهذا المبدأ ، نود ان نشير اشارة عابرة لحديثه عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه :

ـ لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

العدل الاقتصادي توأم العدل الاجتماعي

ان كل عدل لا يقوم على اقتصادٍ منظم .. فهو عدل ناقص بل عدل ظالم ان صح التعبير ، فلن نكون عمليين حين نقولُ للجائع او العادي او المفلس او العاطل عن العمل ، لا ترتكب الجريمة قبل ان نُحقق له مجتمعاً صالحاً لا يجوع فيه ولا يعرى ولا يتعطل عن العمل .

ولا شك ان المجتمع الذي يطبق القانون بحرفيته على من لا يؤمّن لهم مثل هذه الضمانات مجتمع فاسد ظالم مهدّد بالانهيار .

قلنر ، كيف نظر الاسلام الى العدالة من زاويتها الاقتصادية :

لقد امر الاسلام بتأمين العمل لكل قادر عليه . ونظر الى كل نوع من العمل مهما كان ، نظرة احترام وتكريم . وقصة الرسول مع ذلك العامل الذي انتفخت يده من العمل معروفة فلقد حيا رسول الله هذه اليد العاملة قائلا : هذه يد يحبها الله ورسوله ، والاحاديث الرامية الى تمجيد العمل ، وتفضيله احياناً على العبادة واعتباره نوعاً من العبادة ، كثيرة جدا لا مجال الآن لسردها وتفصيلها .

ولكن يجب ان نلاحظ ان الاسلام ساوى في الكرامة الانسانية بين الخادم والمخدوم ؛ والمالك والاجير . وهذا ما لم تعرفه الانسانية في غير تاريخ الاسلام .

ولم يكتف الرسول بالناحية النظرية ، بل طبق ذلك على نفسه عمليا فكان يعمل في مهنة اهله ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه . وذهب الى ابعدَ من ذلك ، فأمر بأن يدفع صاحب المال للعامل اجراً اضافياً عن العمل الاضافي ، وهذا خير ما توصلت اليه اليوم احدث النظريات الاجتماعية .

ولا شك ان بذور الضمان الاجتماعي على انواعه متوفرة في الاسلام . فلقد كفل هذا النظام ما نسميه نحن اليوم المخاطر الجسمانية والمهنية والعيلية :

قد مت جماعة من التجار الى المدينة فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك ان نحرس سهم من السرقة ؟ فوافق عبد الرحمن ، وباتا يحرسان القوم . وسمع بكاء صبي بينهم فتوجه الى امه قائلا : اتقي الله واحسني الى صبيك . ثم عاد الى مكانه ولكن الصبي عاد الى البكاء فعاد عمر اليها يقرعها ، غير انه في المرة الثالثة قال لها :

ويحك اني اراكِ امّ سوء مالي ارى ابنك لا يقرّ منذ الليلة :

فقالت له : يا عبدالله لقد ابرمتني الليلة . إني أربعه على الفطام .

قال : ولم ؟ قالت : لان عمر لم يفرض للرضيع فعجلت في فطامه لآخذ له نصيب الفطيم واستعين به على فقري .

فانصرف عمر الى بيته وصلى الفجر فلما سلّم ، قال : يا بؤساً لعمر ! كم قتل من اولاد المسلمين . ثم امر منادياً فنادى : الا تعجلوا اولادكم عن الفطام فانّا نفرض لكل مولود في الاسلام .

وجاءت اليه يوماً امرأة وقالت : يا امير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغاراً ليس لهم ضرع ولا زرع ، واخشى عليهم المجاعة ، وانا ابنة خفاف بن امين الغفاري . فقال لها عمر : مرحباً بنسب قريب . ثم انصرف الى بعيرٍ قوي ، فحمّله غرارتين ملأهما طعاماً ، وجعل معهما نفقة وثياباً ، وناولها المراة قائلا : اقتاديه فعسى ان يغني هذا حتى يأتيكم الله بخير .

لا استغلال :

لقد تشدد الاسلام في نظريته الى العدالةمن زوايتها الاقتصادية فحرّم مانسميه اليوم بلغتنا السيـــاسية ، الاستفادة غير المشروعة عن طريق استخدام النفوذ والسلطان .

وحبذا لو اصغى حكامنا اليوم الى التاريخ الذي يروي من روائع الاسلام وفضائله وسلوك اتباعه الاولين ما يلي :

رأى عمر بن الخطاب إبلا سمينة ، فسأل عن هذه الابل ، فقيل له : انها لعبد الله بن عمر فقال عمر : ما سمنت ابل عبدالله الا لانه ارعاها يجـــاه امير المؤمنين ادفعوا بها الى بيت المال .

واستدان بعض ولد عمر مالا من ابي موسى الاشعري اذ كان والي الكوفـــة فتاجر به فاصاب ربحاً كثيراً ، فلما تطاير خبر هذا الربح ال عمر استجوب ولده عن مصدره فاجابه انه تاجر بمال استقرضه من ابي موسى فدر عليه هذا الربـــح الكثير ، فقـــال عمر : انك حينما اشتريت ارخصوا لك الثمن ، لانك ابن امير المؤمنين ، وحينما بعت اغلوا لك الثمن لانك ابن امير المؤمنين . اذهب الى بيت المال فشاطره تجارتك .

وفي خلافة علي ابن ابي طالب رضي إلله عنه ، قدم عليه اخوه عقيل وكان ذا عيلة فسأله الزيادة في حصته من بيت المال حتى تقوم بحاجة ابنائه فواعده المساء ، فلما اقبل في موعده قال له خذ هذا ... واشار الى شيء في الارض حسبه عقيل صرة فيها مال فهوى اليها فاذا هي جمرة من النار تكوي انامله ، ففزع وقال لعلي : بئس ما جزيت اخاك وبني اخيك ، اسألك مالاً استعين به على حاجتهم فتعطيني

جمرة ؟ فقال له علي : أهذا مبلغ فزعك من جمرة أحماها صبي للعبه ، وتريد ان تقذف بي في نار سعّرها جبار لغضبه ؟

حلقات التكافل الاجتماعي :

بقيت ناحيـــة مهمة جداً من الموضوع ، وهي مبدأ التكافل الذي فرضـــه الاسلام وعبر عنه بالامور التالية :

١) بالزكاة وهي فريضة غايتها الحد من مساوىء النظام الاجتماعي وقد نجحت الى حد بعيد ، في تحقيق العدالة الاجتماعية بوجهها الاقتصادي اذ يروي لنا التاريخ ان عمر بن عبد العزيز لم يجد في زمن ولايته فقيرا يصرف له من فيض الزكاة .

٢) بالصدقة ، وقد كان الرسول ﷺ يرغب بها ويحث عليها فيقول لعائشة « اتقي النار ولو بشق تمره » و « ما نقصت صدقة من مال » .

٣) بالوصية في المال لوجوه الخير والفقراء ، وقد كان الرسول ايضاً يرغب بها ويحث عليها : يروى ان ابن عوف سمع النبي ﷺ يرغب في الوصية للفقراء بشيء من المال فبلغ من تأثره ان دعا بكاتب وجريدة ثم امر باحصاء ثروتـــه واحصى الفقراء في جريدة اخرى ثم قسم ماله جميعاً بين الفقراء . وبعد ان فرغ من تفريق ثروته كلها تذكر ثلاثة من الفقراء ، لم يوصِ لهم بشيء وعزّ عليه ان ينتقص ما سبق ان اوصى به لعامة الفقراء فلم يجد الا متاعـــه الخاص فأمر الكاتب ان يلحق في جريدته : وان عمامتي لفلان وان قميصي لفلان وان دابتي لفلان . فلمـــا بلغ امره رسول الله دعا له ثم قال : حسبك الثلث وفي الثلث كفاية .

٤) بالميراث الذي يهدف الى تفتيت الثروة واشاعتها بين اكبر عدد ممكن من افراد الاسرة منعاً لتحجر رؤوس الأموال وتجمعها في يد واحدة .

الدين والدنيا :

لا احسب ان نظاماً من الانظمة الاجتماعية الحديثة ، مهما بلغ من الحرص على تأمين للعدالة ، يستطيع ان يؤمن هذه العدالة ويوفرها للمجتمع كما امنها الاسلام ووفرها .

فالاسلام مع كونه ديناً يعنى بتطهير الروح وتهذيب النفس فقد نظر الى الحياة نظرة واقعية وادرك ان هذه الحيـــاة لايمكن ان تستقيم ، وان يبلغ الانسان فيها سعادته ، الا بتحقيق التوازن بين الروح والمادة .

« ولا تنس نصيبك من الدنيا »

« اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا » بمثل هذا الفهم الواعي للحياة ، بدأ الاسلام نضاله لبناء مجتمع صحيح يتحقق فيه التوازن ، وقد استطاع ولا ينكر ذلك الا المكابر ، استطاع ان يقيم مجتمعاً صالحاً اعطى الانسانية الكثير من قيمها ودفع بها الى الامام في معارج الرقي والتقدم والحضارة .

اين هو المجتمع المثالي ؟

ان التاريخ يشهد بان الاسلام كنظام اجتماعي ، اثبت جدارته لتنظيم الحياة تنظيما رائعا . وما الحضارة العربية الزاهية ، في الاندلس ودمشق ، والمدينة المنورة ؛ وما الوثبة الرائعة التي فتحت العيون الكليلة على النور والحريـــة ما ذاك كله الا ثمرة ذلك التنظيم وعطاء ذلك النظام .

هاتوا لي ــ قرائي الاعزاء ــ في القرن العشرين، في قرن الذرة، في قرن المعجزات العلمية ، هاتوا لي انسانا كالانسان الذي رباه الاسلام ، هاتوا لي انساناً يفهم القرآن كما فهمه العرب الاولون ، ويطبق احكامه وتعاليمه كما طبقوها ، ويشيع روحه في نظام الحكم كما اشاعوه، هاتوالي انساناً من هذه الطينة . اعطكم مجتمعاً صالحاً لا عوج فيه ولا امتاً ، مجتمعاً لا يحتقر فيه الانسان ولا يجوع ولا يعرى .

من حقنا :

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : إفتح اذنك لتسمع صيحة الاسلام تصرخ بالناس صراخاً يفزع الظالمين والجشعين « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ثم تؤجج عليهم ثورة المظلومين والمحرومين بالحديث النبوي : « ان الناس اذا رأو الظالم فلم يضربوا على يديه اوشك الله ان يعمهم بعذاب من عنده » وبكلمة ابي ذر المدوية : « عجبت لمن لايجد القوت في بيته ــ كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه » .

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : افتح عينك لترى محمد بن عبدالله تساق اليه اموال الارض وكنوزها ورغد عيشها وهو الحاكم المطاع فيفرقها في الناس ، ولا يحرم منها الا خاصة اهله وذوي قرباه ، حتى اذا عاتبه نساؤه في ذلك اعلن ان ولاية الامر ليست مغنماً يمتاز به السلطان عن سائر الناس ولكنها مغرم يستعذب فيه الحرمان لكفالة تحقيق العدالة بين الناس...«ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرّحكن سراحاً جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجراً عظيماً .

أليس من حقنا ان نستوقف ركب التاريخ لنقول له : سجل بمداد الفخر

والاعجاب : ان رئيس الدولة الاسلامية الاولى صلوات الله عليه قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي . وان ابا بكر قد فارق الدنيا محروما من كل مال كان له قبل الخلافة ، وان عمر ، كان يقول : لو عثرت بغلة بالعراق لرأيتني مسؤولا عنهـــا بين يدي الله :

ورثنا المجد عن آباء صدقٍ أسأنا في ديارهم الصنيعـــا
اذا المجد الرفيع توارثتـه دعاة السوء اوشك ان يضيعا